الارض والدين توارثوا فلاحتها ، منذ اجيال ، أبا عن جد ، فكانوا يجبرون على مغادرتها . وكثيرا ما كان يرفض الفلاحون العرب التنازل عن أرضهم وبيوتهم ، فكانوا يعتصمون مع نسائهم وأطفالهم في الارض ويقعدون فيها للحيلولة دون استيلاء « الملاكين » الجدد عليها ، وعندئذ كان الاعضاء الشبان في الكيبوتز الاشتراكي الذي يعتزم انشاؤه في الارض التي جرى استملاكها يسارعون لطرد الخارجين على القانون المعتصمين في الارض وذلك بمعونة رجال الشرطة الانكليز واليهود . واحيانا كانت تسيل دماء الفلاحين قبل ان تتم اعادة استتباب الامن .

٢ ــ **غزو العمل** : بعد ان يتأمن استملاك الارض، كان العقد الذي يوقع ، بين الملاكين الجدد للارض وهم المؤسسات الصهيونية وبين المزارعين الجدد الذين سيقومون بفلاحة الارض وهم اعضاء الكيبوتز ، يتضمن مادة تمنع تشغيل العرب في تلك الارض سواء بالاستئجار او بالعمل اليومي المأجور . وكان الشعار المعمول به هو : « في الارض اليهودية وفي المشروعات اليهودية لا يستخدم الا اليهود » . واذا حدث ان استخدم احد ملاكي بيارات البرتقال اليهود بعض العمال العرب لانهم ارخص اجرا ، كان قادة الهستدروت ، وهو اتحاد العمال اليهود ، والكتاب والمعلمون يحتشدون عند مدخل مثل هذه البيارة اليهودية التي يستخدم فيها العرب ويكيلون الشتائم على « خونة الصهيونية والامة اليهودية » الى أن يتم استبدال العمال العرب بعمال يهود .

٣ ــ **غزو الانتاج والتجارة** : تمثلت البوادر الاولى لهذا الغزو في الشعار « على اليهود ان يشتروا المنتوجات اليهودية فقط » . وعندما كان احد بائعي الخضر العرب يأتي الى تل ابيب ليبيع بضاعته كان يتحلق حوله المتعصبون من الصهاينة فيقلبون عربته على الارض ويدوسون على بضاعته من الخضر وسط اعجاب الجمهور الغوغائي بالعمل «القومي». وكان رجال الشرطة اليهود سرعان ما ينسحبون من مكان الحادث ويتوارون عن الانظار حتى يزعموا ، ان سئلوا فيما بعد ، انهم لم يروا شيئا .

في تلك الحقبة من الزمن كان العالم الاوروبي المجنون يستعد للحرب العالمية الاولى بأكثر الطرق دناءة واحطها انسانية ، اذ كان الشباب جاهزا لتقبل الاتجاهات القومية ولم يكن يدري بما هو افضل منها . اذ كانت القومية السياسية يومها هي ديانة العالم ، والصهيونيون بدورهم تشربوا افكار القومية السياسية تشربا كليا صميما حتى غدت هي ديانتهم ــ وليس ما كان يلقنه جدي في القدس ــ الالتزام بالمثل الاخلاقية ، والنظرة الانسانية الشمولية ، والتهذيب ، وحب الاخرين ، والتوبة . وكانت فكرة التوبة هي اعظم الافكار ، وبطبيعة الحال ، كنا نحن الصغار نقتفي خطى الكبار . ولكن من حين الى اخر ، وبينما كان جدي الذي نشأت في بيته يحتضر ببطء ، كنت أتسلل خفية الى « بيت هاعام » الكبير اي بيت الشعب حيث كان يلتئم شمل اليهود الصهيونيين اللادينيين ليستمعوا الى المحاضرات وهناك كان بن غوريون يستنهض همم ومشاعر الناس حول «عمينو» ، و «أرتسينو» و «مولادتينو» اي « امتنا » ، و « أرضنا » ، و « وطننا مسقط رأسنا » . وبطبيعة الحال ، كانت بلاغة الخطباء تستهوي الناس ، غير ان اليهود الاصليين الحقيقيين الساذجين البريئين لم يحفلوا بالدكتور هرتسل وحركته ، ولكن بعد موته اسس زملاؤه الجمنازيوم العبري في تل ابيب الذي كنت من اوائل طلابه وكانوا يدعونه « جمنازيا هرزلن » وكنت من أول دفعة تخرجت منه في عام ١٩١٣ ، وكنت قد التحقت به في عام ١٩٠٨ ، بعد اربع سنوات او خمس في القدس القديمة حيث درست التلمود ومبادىء الديانة اليهودية الاصيلة .

ومنذ اليوم الاول الذي رايت فيه حياة اليهود الطفيلية التشرذمية في فلسطين التي تدعى اسرائيل الان ، والتي كانت اشبه ما تكون بحياة المرتزقة اعتزمت السفر الى اميركا حيث اردت ان اذهب لاعتمد على نفسي في معيشتي واصبح انسانا مستقلا ، ولكنني كنت يومها اقل من ستة عشر عاما من العمر فلم يسمح لي بالسفر الى اميركا بمفردي . وفي واقع الامر ، ركبت الباخرة من يافا الى باريس معتزما اكمال الرحلة الى اميركا ولكنهم لم يسمحوا لي ، وكان على السلطات في يافا ان تمنع سفري الى باريس ، ولكنني افترض انهم سمحوا لي لان الرجل الذي اشتريت تذكرة السفر منه تقاضى عمولة مني وجعل المختصين يغضون النظر عن كوني اقل من ستة عشر عاما من العمر، وعندما رجعت الى يافا ، وكنت يومها على مشارف السادسة عشرة من العمر ، كانت الكوليرا تحصد الناس حصدا في يافا ، اذ كانت تتسبب يوميا في